مجلة الرائد

العدد : ٢٣٤ الموافق في ذو الحجة ١٤٢٢ هجري ٢٠٠٢/٣ ميلادي

عنوان المقال : لمحات من الواقع "زميل قديم"	الكاتب : الأستاذ عصام العطار

اعترضني فجأة في الطريق . أمسك يدي وأوقفني . حملق في وجهي ثمّ صاح بانفعال :

- أنت فلان

- نعم

- ألا تتذكّرني ؟

ونظرتُ إليه ، كان رجلاً مَحْنِيَّ الظهر ، مهدَّم الجسم ، مُرتجفَ الرأس واليدين ، شاحبَ الوجهِ مُنْطَفِيءَ العينين ..

وعاد الرجل يسألني بلهفة وانفعال :

- ألا تتذكّرني ؟!

وما تذكّرتُ الرجل ، فقلتُ بأسف وخجل :

- كلاّ ، فمن أنت ؟

قال بصوت منكسر يتقاطر منه الأسى واليأس :

- أنا صاحبك وزميلك في الدراسة الابتدائية والثانوية .. أنا فلان

- مستحيل « انطلقت الكلمة من فمي دون تفكير »

مستحيل ، نعم مستحيل ، هذا شيء لا يصدَّق !

كان صاحبُ الاسم الذي ذكره زميلاً لي في المدرسة الابتدائية والثانوية .. جلسنا في بعض سنوات حياتنا على مقعد واحد ، ومشينا على طريق واحد ، ولعبنا مع الرفاق أنفسهم ، إلى أن باعدت بيننا الحياة ، وباعد الزمان

كان صاحبُ هذا الاسم فتىً رياضيّاً وسيماً ، يتوقدُ ذكاءً ، ويتفجّرُ نشاطاً، ويفيضُ ظرفاً ولُطفاً ، وتفاؤلاً وأمَلاً ، وثقةً في الحاضر والمستقبل

استحضرتُ بلحظة خاطفة صورة ذلك الزميل القديم وأنا أنظر إلى هذا الرجل البائس الذي يقف أمامي بصعوبة بالغة مَحْنِيَّ الظهر ، مهدَّم الجسم ، مرتجفَ الرأس واليدين ، شاحبَ الوجهِ منطفئَ العينين

قلت له وأنا أحاول أن أتمالك نفسي لأخفي ما ثار فيها من الدهشة والشفقة والحزن :

- وما هي أخبارك الآن ؟

قال :

- لقد أفرجوا عنّي بعد عشرين عاماً قضيتُها في السجن

- السجن ؟! لماذا ؟!

- لا أدري - واللّه لا أدري - أنا لم أرتكب قطُّ جُرْماً ، ولم أُؤْذِ أحداً .. لقد أكلني السجنُ أكْلاً كما تَرى ، لقد افترس السجنُ شبابي وآمالي وأحلامي كما افترس جسمي ورِئَتَيَّ وكليتي وكبدي ، ولم أُقَدَّمْ إلى محكمة ، ولم تُوَجَّه إليّ تُهمة محدَّدة !!

قلتُ :

- وما تفعل الآن ؟

قال :

- أنتظر الموت ، فلم أعد قادراً على الحياة ، ولم يعد في يدي شيء من أسباب الحياة

ثمّ انعطف الرجلُ البائس اليائس أو الزميل القديم - إن شئتَ - عنّي بلا وداع وعيناهُ تذرفان ، ومضى بخطواتٍ مضطربةٍ واهنةٍ يتخبّط في الطريق »

قال لي مُحَدِّثي الذي روى لي هذه القصة التي حصلت له في بلده العربي ، قال لي وهو يرى شدّةَ تأثُّري وحزني :

إنّ ما رويتُه لك ليس إلاّ نموذجاً لحالات كثيرة كُتِبَ لأصحابها الفرجُ والإفراج في نهاية المطاف ؛ ولكنْ هناك ألوف وألوف أسوأ حالاً : ابتلعتهم سجون الظلم والطغيان ، فلم يخرجوا من عذابها وظلامها إلاّ إلى قبورٍ مجهولة ، وليس يدري آباؤهم أو أبناؤهم أو أزواجهم أو أهلهم وأصدقاؤهم حتى الآن : هل هم في الأحياء أم الأموات ؟!

عنوان المقال : لمحات من الواقع "زميل قديم"	الكاتب : الأستاذ عصام العطار

قلت في نفسي والحزن يغمرني :

- يا ليتَ حكامَ العرب والمسلمين الذين قتلوا شعوبَهم وداسوها وحبسوها وأذلّوها ، وخنقوا رأيَها وفكرَها وشخصيّتَها وكرامتَها ، وألغَوْا حقوقَها ووجودَها الفاعل الحرّ ، ووصلوا بها ، وبأنفسهم معها ، إلى ما نراه الآن ، ويراه العالم كلُّه ، من العجز الفاجع ، والهوان الفاضح ... يا ليتَ حكامَ العرب والمسلمين يُراجعون أنفسهم ، ويصحّحون مسارهم قبل فوات الأوان ، ويتعلّمون من واقعهم الراهن المخزي ، وواقع عالمهم وعصرهم ، أنه لا يمكن أن يكون لهم حريةٌ ولا كرامة ، ولا قوةٌ ولا أمنٌ ولا سلامة ، إلا بشعوبهم عندما تمتلك شعوبُهم القوةَ والحرية والكرامة ، وسائرَ ما اغتصبوه منها من الحقوق الإنسانية المشروعة.